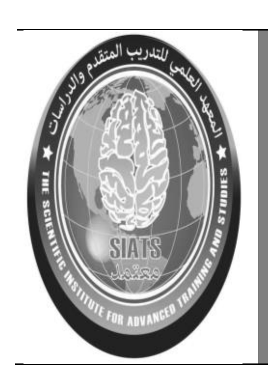


SIATS Journals

**Journal of Islamic Studies and Thought for Specialized Researches**

**(JISTSR)**

Journal home page: http://www.siats.co.uk



**مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية**

العدد 1، المجلد 1، كانون أبريل 2015م.

e-ISSN: 2289-9065

# THE ELEMENTS OF SOCIAL TOLERANCE IN THE LIGHT OF THE HOLY QURAN

# مقومات التسامح الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم

**د. نجم عبد الرحمن خلف/جامعة العلوم الإسلامية الماليزية.**

**najm@usim.edu.my**

**د. عبد الرحمن عبيد حسين/جامعة العلوم الإسلامية الماليزية.**

**drabrahman@usim.edu.my**

**1436هـ – 2015م**



**ARTICLE INFO**

***Article history:***
Received 10/10/2014
Received in revised form 2/12/2014
Accepted 25/12/2014
Available online 15/4/2015

***Keywords:***
*Insert keywords for your paper*

## ABSTRACT

The Quranic call for tolerance is based on a set of moral values and human virtues, and Quranic verses mentioned three different types of tolerance: religious, political and social. The achievement of religious tolerance depends on dialogue, *Ihsan* and forgiveness, and it is the responsibility of the state, its institutions and individuals to implement it. The political tolerance is guaranteed and achieved by democracy and constitutional government through the process of justice, equality and *Shurah*. The social tolerance – which is the most important and complicated tolerance in our Muslim societies - could be achieved by establishment of a solid platform for a range of a collective and individual moral virtues, that could implemented through the individual daily dealings and transactions, cultural associations, economical groups and educational activities. The backbone of the social tolerance in the holy Quran is His almighty word: “O Mankind! We have created you from a male and a female, and made you into nations and tribes, that you may know one another. Verily, the most

honorable of you with Allah is that who has Taqwah. Verily, Allah is All-Knowing, All-Aware”. The message of this verse is for all human being

Regardless of religious background or sectarianism, and it is a call for social reconciliation and cultural integration. The achievement of social tolerance is bound to democratic system that guarantee freedom and equality.



## الملخص

إن دعوة القرآن إلى التسامح مؤسسة على مجموعة من القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية، والآيات القرآنية تحدثت عن ثلاثة أنواع من التسامح: الديني والسياسي والاجتماعي، فأما الديني فكان عن طريق دعوات الحوار والإحسان والصفح والعبء الأكبر لتحقيق هذا التسامح يقع على عاتق الدولة والباقي على مؤسسات الدولة الخاصة والأفراد، وأما السياسي فكان من خلال إرساء مفاهيم العدل والمساواة والشورى ويكفلها الدستور والحكم الديمقراطي، وأما الاجتماعي فكان بتأسيس أرضية صلبة لمجموعة من الفضائل الأخلاقية فردية وجماعية، ويحقق هذا النوع الأفراد في صورة تعاملات فردية أو في صورة جمعيات ثقافية واقتصادية وفنية وتربوية، والتسامح الاجتماعي هو الأكثر تعقيداً وأهمية في عصرنا وفي مجتمعاتنا. والأساس القرآني الأعظم في التسامح هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: 13]، فالخطاب عالمي للبشر قاطبة على اختلاف مللهم ونحلهم، والدعوة التعارفية التي ينادي إليها دعوة للتصالح الاجتماعي والتثاقف العلمي والتكامل المعرفي. وتحقيق التسامح الاجتماعي مرهون بنظام ديمقراطي يكفل الحريات والمساواة، ولا بد من دعم بعض الخطوات الحضارية لتحقيق الإخاء والتسامح، والأهم من هذا وذاك الإسهام في تأسيس ودعم جمعيات ومنظمات اجتماعية وثقافية وفنية واقتصادية نشطة تبث روح التسامح وتلغي الفوارق بفعالياتها وعملها الصافي من العصبية والجهل بأبنية ثقافة الأقليات، وإلغاء لغة (الإسكات) المتبعة في أدبيات التواصل والتآخي.




## المبحث الأول

## التسامح وتجلياته في ظلال القرآن

سَمُحَ ككَرُمَ سَماحاً وسَماحَةً وسُمُوحاً وسُموحَةً وسَمْحاً وسِماحاً ككِتابٍ: جادَ وكَرُمَ كأَسْمَحَ فهو سَمْحٌ. وسُمحاءُ ككُرَماءَ: كأَنَّهُ جَمْعُ سَمِيحٍ. ومسامِيحُ: كأَنَّهُ جَمْعُ مِسْماحٍ. ونِسْوَةٌ سِماحٌ ليس غيرُ والسَّمْحَةُ: للواحِدَةِ والقوسُ المواتِيَةُ والمِلَّةُ التي ما فيها ضِيقٌ. والتَّسْميحُ: السَّيْرُ السَّهْلُ وتَثْقيفُ الرُّمْحِ والسُّرْعَةُ والهَرَبُ والمساهَلَةُ كالمساحَةِ. وإنَّ فيه لمِسْمَحاً كمَسْكَنٍ أي مُتَّسَعاً. وتسامَحوا: تَساهَلوا. وأسْمَحَتْ قَرونَتُه: ذَلَّتْ نَفْسُهُ والدَّابَّةُ: لانَتْ بعدَ اسْتِصْعابٍ. وعُودٌ سَمْحٌ: لا عُقْدَة فيه.[1]

ولما لم ترد كلمة التسامح بلفظها في القرآن الكريم لا نطيل الكلام حول الجذر اللغوي، ونكتفي بإيراد بعض الأحاديث التي تحدثت عن مفهوم التسامح بلفظه: أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة[2]، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ[3]. والحديث المشهور: رحم الله رجلا سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى[4]. ويمكننا التمييز بين ثلاثة أنواع من التسامح يتحدث القرآن الكريم عنها بوضوح ودقة نركز عليها دون غيرها مما قد يقع عليه بعض الباحثين[5] لأهميتها في تسوية النزاعات العرقية والطائفية في المجتمعات متعددة الأعراق والثقافات:

---

[1] الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط6، 1419هـ/1998م) باب الحاء، فصل السين، ص 225.

[2] البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا (بيروت: دار ابن كثير، اليمامة، د. ط، 1407هـ/1987م) ج1، ص 22.

[3] بن حنبل، الإمام أحمد: المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1420هـ/1999م) ج43، ص 115. قال الشيخ شعيب: حديث حسن.

[4] البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر، ج2، ص 730.

[5] أسرف بعض الباحثين في تفريع أنواع التسامح غير عابئين بالتداخل بين أنواعها وشمول بعضها لآخر أو توزع نوع منها في طيات أنواع أخرى، انظر على سبيل المثال رسالة ماجستير بكلية التربية سنة 2009م بعنوان: دور الجامعات الفلسطينية في تعزيز قيم التسامح لدى طلبتها من وجهة نظرهم، للباحث: محمد حسن محمد المزين، حيث أضاف إلى الأنواع الثلاثة المذكورة نوعين هما: التسامح الفكري والثقافي والتسامح العلمي: ص 204، 225. والنقد موجه لمثل هذا التفريع في أن التسامح الفكري قد يدخل في الديني أو السياسي أو الاجتماعي والثقافي وثيق الصلة بالتسامح الاجتماعي، والتسامح العلمي لا يختلف عنهما كثيراً في هذا الأمر!



**أولاً: التسامح الديني**

من ينظر في المؤلفات الإسلامية حول التسامح الديني وحقوق المواطنة يجد أنها تتحدث عن التسامح الديني الذي تمارسه الدولة مع الملل والنحل المختلفة خاصة اليهود والنصارى، وهي بصورة عامة انعكاس لواقع متردٍ من العلاقات بين هذه الأطراف كوضع طبيعي لحالة التخلف السياسي والاقتصادي والتربوي والتعليمي كما تعكس في الوقت نفسه مسعى حميداً لإظهار حسن النوايا وربما تنطوي على وعود سياسية، ويرى الدكتور شوقي أبو خليل أن مفاهيم الصفح والإحسان وما يقابلهما من نهي عن التعنت والتعصب والتطرف والغلو كلها تعطي صورة متكاملة للتسامح في القرآن الكريم[6] وإن لم ترد مفردة التسامح في آياته الكريمة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 109]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46].

وفضلاً عن هذا السرد التقليدي لآيات التسامح، ينظر الشيخ الغزالي إلى التسامح الديني من منظور آخر فيناقش الآيات التي يوحي ظاهرها بالتعصب الديني، وهي الآيات التي ما يبترها المتصيدون عادة عن سياقاتها للطعن في تسامح الإسلام مع الأديان الأخرى، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51]، فيرى الغزالي أنها مبتورة عن سياقها وهي تتحدث عن فرقة من أهل الكتاب تآمرت مع المنافقين، وليست الآية بصدد إقرار حكم عام على أهل الكتاب[7]. ومثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 58]، والتي يراها الشيخ بديهية لا تحتاج إلى تفكير وتأمل ولا تدل بحال على تعصب الإسلام ضد أهل الكتاب "فهل هناك ضير على دين ما إذا منع أتباعه من مصادقة الذين يتهكمون بتعاليمه، ويسخرون من شعائره"؟![8]

---

[6] أبو خليل، شوقي: التسامح في الإسلام، المبدأ والتطبيق (بيروت: دار الفكر المعاصر، ط1، 1414هـ/1993م) ص 42.

[7] الغزالي، محمد: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (القاهرة: دار نهضة مصر، ط6، 2005م) ص 37.

[8] الغزالي، محمد: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص 38.



وهذه مسألة تستحق الاهتمام ففي المجتمعات الغربية وأمريكا تنمو الصداقات بين أتباع الديانات المتخاصمة على الرغم من إدراك الجميع لحجم سخرية الآخر وتهكمه من دينه، ونمو تلك الصداقات يشكل لغزاً لأتباع الديانات نفسها في المجتمعات الشرقية التي لا تعلو فيها سلطة القانون وتحكمها الصدامات السياسية بدل التسامح السياسي، وبدهي أن تحقق هذا التسامح مرهون بسيادة القانون ونظام ديمقراطي عادل، وتغطي الاحتياجات اليومية وحجم المسؤوليات وضغوطات العمل على فتح الأبواب مشرعة أمام جدل ديني لا نهاية له ولا يقود إلا إلى صدام سياسي، فينشغل كل مواطن بنفسه واحتياجاته ولا تظهر علائم التهكم الديني إلا في مناسبات عابرة لا تلبث أن تختفي.

واستلهم الشيخ السباعي من آيات القرآن الكريم ضوابط للتعامل بين الملل والنحل لتحقيق التواد والسلم بينهم، منها: الأديان السماوية كلها تستقي من معين واحد، والأنبياء إخوة لا تفاضل بينهم من حيث الرسالة، وعلى المسلمين أن يؤمنوا بهم جميعاً، وأن العقيدة لا يمكن الإكراه عليها، بل لابد فيها من الإقناع والرضا. وأماكن العبادة للديانات الإلهية محترمة يجب الدفاع عنها وحمايتها كحماية مساجد المسلمين. ولا ينبغي أن يؤدي اختلاف الناس في أديانهم إلى أن يقتل بعضهم بعضاً، أو يتعدى بعضهم على بعض، بل يجب أن يتعاونوا على فعل الخير ومكافحة الشر، أما الفصل بينهم فيما يختلفون فيه فلله وحده هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة. وأن التفاضل بين الناس في الحياة وعند الله بمقدار ما يقدم أحدهم لنفسه وللناس من خير وبر. وأن الاختلاف في الأديان لا يحول دون البر والصلة والضيافة، وإن اختلف الناس في أديانهم فلهم أن يجادل بعضهم بعضاً فيها بالحسنى.[9]

**ثانياً: التسامح السياسي**

وهو التسامح الذي تمارسه الدولة مع رعاياها من الأقليات العرقية التي يسود التوتر علاقاتها ببعض على الرغم من أنها تنتمي إلى دين واحد ومذهب واحد إلا أنها تتحدث بلغات مختلفة وتحمل ثقافات وعادات مختلفة، والحل الذي تقدمه الدولة يتحقق في ظل نظام ديمقراطي تعددي، وفرص عمل وتعليم متكافئة، وضمانات اجتماعية وصحية للمواطنين دون تمييز. والذين كتبوا في التسامح الديني خلطوا التسامح السياسي بالتسامح الديني، وتطرقوا

---

[9] السباعي، مصطفى: من روائع حضارتنا (بيروت: دار الوراق للنشر والتوزيع، ط1، 1420هـ/1999م) ص 130-132.



إلى مسألة الأقليات بحذر و(حشمة) لا تليق بالمقام والمقال، وربما وجدوا في طرق هذا الباب مدخلاً إلى جحيم الفرقة ونار العصبيات المتقدة أصلاً متناسين أن القضاء على المشكلة يكمن في طرحها بصراحة ووضوح لا بالتكتم عليها، وربما يخفون بهذا التكتم فرعنة طائفة أو عرق معين وهيمنته على مفاتيح القيادة والاقتصاد في البلد فيدركون تمام الإدراك أن الحديث عن حقوق الأقليات سيميط اللثام عن فساد كبير تعيش في بحبوحة ظله فئة أصحاب المفاتيح القارونية تلك.

ولنا أن نتعلم شيئاً من واجب الدولة تجاه رعاياها من رسالة جون لوك في التسامح التي كتبها قبل قرون، وفي ظل القتال الدموي المرير بين الكاثوليك والبروتستانت، حيث قال في طياتها: "ويبدو لي أن الدولة مجتمع من البشر يتشكل بهدف توفير الخيرات المدنية والحفاظ عليها، وتنميتها. وأنا أعني بالخيرات المدنية الحياة، والحرية، والصحة، وراحة الجسم، بالإضافة إلى امتلاك الأشياء مثل المال، والأرض، والبيوت، والأثاث، وما شابه ذلك"[10]. وأسوأ ما يمكن أن تخلفه السياسات الدكتاتورية قاطبة هو تحطيم الروح الوطنية التي عمل نظرياً على توكيدها وجعلها أيقونة في صدور المواطنين، فسياسة فرق تسد التي مارستها الديكتاتوريات طويلاً وخدمت النظام خدمة عظيمة آتت ثمارها العلقمية في بث الكراهية بين الأعراق والطوائف والنحل الدينية، واليوم تئن شرائح المجتمع كافة من ويلات هذا العمل الشيطاني.

والآيات الدالة على هذا النوع من التسامح وفيرة، فكل آية تأمر بالعدالة والشورى والإنصاف والوقوف على قدم المساواة أمام القضاء والمحاكم دون النظر في لون أو عرق أو نسب... كلها دعامة للتسامح السياسي، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:

[10] لوك، جون (1632-1704م): رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبو سنة، مراجعة وتقديم: مراد وهبة (مصر: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 1997م) ص 23. ورسالة لوك على قصرها دعوة فلسفية إلى تبني نظام لا ديني بسمح لكافة الطوائف الدينية العيش في تسامح بموجب قوانين صارمة وعادلة لا تدعي احتكار الحقيقة ولا تتدخل في القناعات الشخصية للمؤمنين. ولا ينسى لوك في محاججته اللاهوتية المميزة في التسامح أن يصف الأتراك العثمانيين بالكفار!، ص 34، لكنه أكَّد أنهم ليسوا هراطقة (ملاحدة) أو منشقين بل هم كفرة وحسب وهكذا شأن المسيحي الذي يعتنق الإسلام فهو كافر ومرتد وليس هرطيقاً، وهذا يعني أن تسامحه الديني لا زال يشمل الكفرة والمرتدين بعنايته، ص 66؛ لكنه قرَّر بشكل واضح: "وأخيراً لا يمكن التسامح على الإطلاق مع الذين ينكرون وجود الله"، ص 57.



38-40]، ، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]، ، وغيرها كثير لا يحصى. والشواهد على العمل بها من السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين كذلك كثيرة تدل على واقعية الأحكام الدينية وإمكانية تطبيق مؤسسات الدولة لها.

**ثالثاً: التسامح الاجتماعي**

وهو النشاط الذي تقوم به المؤسسات الخاصة العلمية والبحثية والاقتصادية والفنية والثقافية التابعة للأعراق والأقليات المنتشرة في المجتمع من أجل تحقيق مصالحة وتقارب واندماج بينها بعيداً عن تدخل الحكومة أو بإشراف استشاري بعيد منها على هذه الأنشطة والفعاليات، وهذه الأنشطة نادرة في المجتمعات الإسلامية عموماً إلا أنها حاضرة في الغرب وأمريكا بقوة وتعمل وفق آليات عمل منتظمة متجردة من الدعاية والصخب والنفاق الاجتماعي المدمر، ولا يخفى أن هذا النوع من التسامح لا ينشط إلا في مجتمعات تسودها أجواء الحرية والديمقراطية والعدالة.

وعلى الرغم من أن الدكتور أبو خليل ركز في كتابه السالف على التسامح الديني لا الاجتماعي إلا أنه ساق أمثلة من القرآن تصب في خط التسامح الاجتماعي، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: 90]، وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت: 34].

فآية سورة النحل من جوامع الكلم والحكم حتى أنها كانت وحدها سبباً في إيمان صحابي جليل هو عثمان بن مظعون[11] فقد استوقفته الآية طويلاً وصرعت بقوتها الفكرية كل ظلال الوثنية والجهل في عقله، واستوقفت كذلك الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز فجعلها لازمة من لوازم خطبة الجمعة ولا زالت إلى يومنا هذا تقرع الأسماع ولكن هل وقعها في الفكر شبيه بوقعها المزلزل للصحابي بن مظعون؟ فكلمة العدل في الآية تعني الإنصاف في كل شيء، ومن الإنصاف الإقرار بنعمة الله وتوحيده![12]، ويلزم من ذلك الإقرار بثقافة الآخرين وعدم البغي

---

[11] الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط1، 1417هـ/1997م) ج2، ص 588.

[12] الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م) ج17، ص 279.



عليهم والسعي إلى عقد روابط التآلف ونزع فتائل الخصام والكراهية، ويتوزع في هذه الآية التسامحان السياسي والاجتماعي كفافاً وانتصافاً، فتحقيق العدالة والقضاء على الظلم والبغي من وظائف الدولة ومنوط بمؤسساتها، كما أن تمتين العلاقات النسبية والتناهي عن الفحشاء والمنكر من وظائف المؤسسات الاجتماعية والثقافية التي تديرها الأعراق المتعددة.

وآية فصلت تأمر بفضيلة أخلاقية تقوي الصلات الاجتماعية وتعظم التسامح، وكما يقول الزمخشري: الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك...وما يلقى هذه الخليقة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير، وقيل أن هذه الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب كان عدواً مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار ولياً مصافياً.[13]

أما الأساس القرآني الأعظم في نظرنا، وهو الأساس الذي غاب عن كتاب الدكتور أبي خليل والغزالي وغيرهما في التسامح فهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: 13]، فالخطاب عالمي للبشر قاطبة على اختلاف مللهم ونحلهم، والدعوة التعارفية التي ينادي إليها دعوة للتصالح الاجتماعي والتثاقف العلمي والتكامل المعرفي، وفي فهم هذه الآية نخالف المفسر الكبير الزمخشري الذي ساق تقسيماً كلاسيكياً للشعوب، فقال: الطبقات عند العرب ست: الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة، فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة[14]، وسبب المخالفة أن عطف القبائل على الشعوب يقتضي مغايرة نوعية، ولما كانت القبائل حسب تقسيم العرب فرعاً من الشعب لم يكن هناك معنى من التفريق بينهما وهما كيان واحد، فهل يعقل أن يكون الخطاب: يا أيها الناس إنا جعلناكم خزيمة وقريشاً لتعارفوا، والتعارف بينهما تحصيل حاصل، ولا مفر من التسليم أن هذا الخطاب هو خطاب عالمي موجه للإنسانية جمعاء، فكل الأمم بثقافاتها ومعارفها وتقاليدها تلتقي لغاية التعارف والتثاقف وتبادل المعارف لا لتتحارب ويلغي بعضها بعضاً.

---

[13] الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج4، ص 205-206.

[14] الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج4، ص 377-378.



والآية التي تشير إلى أن تنوع الألسنة والألوان والعادات سمة جمالية للحضارة، ومدعاة إلى الثراء الثقافي، ومعلوم أن التنوع العرقي آية من آيات الله في الكون لمن يتبصر ويعقل كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[الروم: 22].

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: 40]، إطار كبير للتسامح في دائرة العلاقات اليومية في العمل والتجارة وصفوف الدراسة والتدريس، وشبكات العلاقات الأسرية والقرابات، ومحاكم الأحوال الشخصية، وقضايا الديات والثارات والنعرات العشائرية، فهي آية عامة عن التسامح الاجتماعي وإنَّ جاءت في سياق العقوبات والمعاملة بالمثل، وهل يتحقق التسامح بين أفراد المجتمع إلا إذا وجد أناس يتنازلون عن حقوقهم طواعية ابتغاء مرضات الله لا طمعاً في الديات والغرامات؟ واختفاء ظاهرة التسامح في العقوبات من المجتمع مؤشر خطير على تدني مستويات التسامح الاجتماعي والرهان بدل ذلك على سلطة القانون ونزاهة القضاء، وهما سلطتان تكفلان التسامح بكل أنواعه ولكن العفو والإصلاح المذكوران في الآية يخففان الكثير عن كاهل القضاء ويدعمان سلطة القانون.

وفي هذا السياق يأتي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22]، داعماً لهذا التوجه الأخلاقي النبيل، فأبو بكر رضي الله عنه عندما علم أنَّ مسطح بن أثاثة ـ وهو ابن خالته ومن الذين شهدوا بدراً ـ شارك في حديث الإفك قطع عنه مساعدة مادية كان يعطيها إياه لدواعي القرابة والهجرة، فلما نزلت هذه الآية مثنية على العفو والمغفرة، وواعدة بالأجر والمغفرة في الآخرة نقض أبو بكر الصديق عقوبته وأعاد نفقته إلى سيرتها الأولى على الرغم مما سببه حديث الإفك من كدر عظيم لشخصه ومكانته الاجتماعية وهو والد السيدة عائشة الطاهرة.[15]

[15] لمزيد من التفاصيل حول مشاركة مسطح بن أثاثة في حادثة الإفك وتداعياتها الاجتماعية والأخلاقية والقانونية في المجتمع الإسلامي، انظر: الطبري: جامع البيان، ج19، ص 136 وما بعدها.



بل إنَّ دعوة التسامح والمغفرة مع الأقرباء تتجاوز حدود الإساءات الاجتماعية وتمس قضايا كبيرة في باب المعتقدات، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: 14]، ذكر الطبري أنها نزلت في عوف بن مالك

الأشجعي الذي كلما أراد الغزو بكى إليه أهله وولده ورققوه فيرق ويقيم! أو في الأعراب الذين دخلوا الإسلام فحاول أهلهم وأولادهم منعهم فنزلت فيهم، وكانوا قد توعدوا أهلهم بالعقوبة إذا رجعوا فأمرهم المولى الرحيم بالمغفرة: "إن تعفوا أيها المؤمنون عما سلف منهم من صدّهم إياكم عن الإسلام والهجرة وتصفحوا لهم عن عقوبتكم إياهم على ذلك، وتغفروا لهم غير ذلك من الذنوب"[16] يغفر الله لكم ذنوبكم.

وأما النشأة التاريخية لمفهوم التسامح فيربطها البعض بالثورة الفرنسية وبداية الانتفاضات الكبرى في الغرب، والتمرد على السلطة التقليدية في مسائل الدين والسياسة، ويعدون رسالة جون لوك أول مؤلف في التسامح الديني[17]. وقد كتب الفيلسوف الفرنسي فولتير ملهم الثورة الفرنسية عن التسامح وهو صاحب المقولة الشهيرة: "إني أخالفك رأيك، ولكني أدافع حتى الموت عن حقك في إبدائه". والحق أن نشأة هذا المفهوم أقدم بكثير مما أرخوا له، والتاريخ القديم يشهد بالظهور القوي لفكرة التسامح الديني في عهد كوروش الكبير مؤسس الأسرة الأخمينية الحاكمة في إيران وتعامله مع الجالية اليهودية خير دليل على ذلك، فقد رفع عنهم ذل العبودية الذي فرضه نبوخذنصر بعد أن دمّر مملكتهم وساق عشرات الآلاف منهم عبيداً إلى العراق، ودعمهم كوروش بالمال والسلطة للعودة إلى ديارهم وإعادة بناء الهيكل، وتفاصيل هذه التجربة القديمة موجودة في سفر استير[18] في العهد العتيق، ويحتفل اليهود إلى اليوم بيوم استير كرمز للخلاص.

---

[16] الطبري: جامع البيان، ج23، ص 425.

[17] عبد الوهاب، أشرف: التسامح الاجتماعي بين التراث والتغير، تقديم حسن حنفي ومحمد الجوهري (مصر: دار كتب عربية، سلسلة كتب التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الثاني عشر، د. ط، ت) ص 294.

[18] يصور سفر استير خطوات الخلاص من الظلم الذي ألحقه بهم (هامان!) وزير كوروش الكبير بتدبير من استير وابن عمها ومربيها مردخاي، والمعروف من خلال قصص القرآن أن هامان كان وزيراً لفرعون موسى إلا أن التوراة تجعله وزيراً لكبير أكاسرة فارس وهو أمر دعا المستشرقين قديماً إلى افتراض أن هذا التغيير لم يكن سوى خطة من الرسول صلى الله عليه وسلم لمخالفة اليهود وتكوين عهد جديد خاص به!، وهذا الافتراض متهافت فالقرآن الكريم مصدق لما في التوراة إن كان على صورته الأصلية قبل عمليات التزوير والتحريف ومهيمن على ما سواه فهو الأصل والمرجع والباقي تلاعب بالتاريخ والعقائد والشرائع.



وعُرف الإمبراطور الفارسي داريوش (دارا) الكبير بتسامحه مع أتباع الديانات وعدله حتى أن مفكراً معروفاً هو أبو الكلام آزاد مال إلى أن (ذو القرنين) قد يكون كوروش العظيم أو داريوش الكبير لاتصافه بالعدل والسيرة الحسنة وهي الصفات التي أثبتها القرآن لذي القرنين إضافة إلى توحيده للخالق وإيمانه العميق وفقاً لوجهة نظره؛ كما أن سيرة الاسكندر المكدوني تشهد بتسامح ديني واجتماعي بارزين خاصة بعد فتحه لبلاد فارس ومصر والهند فقد أعطى حرية لأتباع الديانات المختلفة في مزاولة شعائر دينهم وبناء معابدهم وإن كان حريصاً في الوقت

نفسه على إشاعة الثقافة والفلسفة اليونانية والدعوة إلى تبنيها؛ وعرف النجاشي بتسامحه إلى الدرجة التي أغرت المسلمين في المرحلة المكية بالهجرة إلى الحبشة طمعاً في حمايته وهرباً من بطش قريش. والحضارة الإسلامية من بعدهما تضيء التاريخ بصفحات من التسامح الديني والاجتماعي قلما نشهد لها مثيلاً في الحضارات الأخرى، والشواهد على ذلك كثيرة من التاريخ الإسلامي.

وقد ألف أستاذ التاريخ والمفكر الإسلامي المعروف شوقي أبو خليل كتاباً في حقيقة التسامح وتطبيقاته، واختار لمجال التطبيق حقلاً بعيداً عن الواقع الذي نعيشه، وافتتح كتابه بحوار مع مستشرقة فرنسية تكتب أطروحة دكتوراه حول زعم فيكتور هوغو أن عمر بن الخطاب هدم أربعة آلاف كنيسة[19]...وانهمك في سرد دلائل تاريخية على تسامح الإسلام ودلائل أخرى على هدم فرنسا للمساجد أو تحويلها إلى كاتدرائيات في الجزائر، وهي دلائل تشير إلى قراءة عميقة في التاريخ الإسلامي إلى درجة أغرقته في بحور التاريخ المتلاطمة.

وكذلك ألف الشيخ محمد الغزالي كتاباً بعنوان: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، وفيه سرد طويل لوقائع طويلة عن حقيقة التسامح الديني خاصة مع الأقباط في مصر، وهو يعكس واقع التسامح الاجتماعي والسياسي المنتكس في مصر، ويحاول رأب الصدع في العلاقات بين النصارى والمسلمين ـ التي أفسدها النظام السياسي ـ من خلال دعوة الإسلام إلى التسامح الديني وكأنه هو المسؤول!

[19] انظر: أبو خليل، شوقي: التسامح في الإسلام، المبدأ والتطبيق، ص 8.



## المبحث الثاني

## التسامح الاجتماعي والتنازع بين الوازعين الفردي والمؤسسي

أطلق المفكر برنارد وليامز على التسامح لقب "الفضيلة الصعبة" في كتابه الذي يحمل العنوان نفسه في إشارة واضحة إلى أهمية فكرة التسامح وضرورتها الحتمية وصعوبة تفعيلها في المجتمع وتحويلها إلى واقع معاش. والتسامح تبعاً لذلك من أكثر المفاهيم أهمية في وقتنا، لأنه المبدأ الأساس الذي تقوم عليه الحياة الاجتماعية، والتسامح يحكم العلاقة بين الأفراد والجماعات وحتى العلاقات الدولية[20]. وذهب بعض الفلاسفة إلى أن التسامح نظرياً وعملياً ما هو إلا قناع يخفي حقائق سياسية تتسم بالرعب والفزع.[21]

وهؤلاء الفلاسفة والمفكرون يتحدثون عن التسامح التقليدي والمعني به التسامح الديني على وجه الخصوص وليس التسامح السياسي أو التسامح الاجتماعي الذي نحن بصدده، والتسامح كممارسة –على حد قول بعض الباحثين – لا يزال هشاً إلى درجة بعيدة، وعلى كل جيل أن يبدأ تجربته مع التسامح متلعثماً، إلا أن وجودها كفكرة يعطي الأمل في وقوفها على قدميها ذات يوم[22]؛ حتى أن جون لوك الفيلسوف الديني نفسه أعلن بيأس عن عجز المؤسسة الدينية في تفعيل التسامح الديني في ظل حكومة ثيوقراطية (دينية)، فقال في معرض حديثه عن الصراع الكاثوليكي البروتستانتي: "فكل كنيسة تعتقد أن ما تعتقده هو الحق، وتعتقد أن ما ينطق به على الضد من ذلك هو خطأ. ولذلك فإن النزاع بين هاتين الكنيستين في شأن صدق نظريتهما ونقاء عبادتهما هو نزاع متكافئ، وليس في إمكان أي قاض سواء أكان في القسطنطينية أو في أي مكان آخر على وجه المعمورة أن يصدر حكماً يحسم به هذا النزاع، وحسمه من شأن القاضي الأعلى وحده الذي من اختصاصاته وحده إنزال العقاب على الضال"[23].

---

[20] عبد الوهاب، أشرف: التسامح الاجتماعي بين التراث والتغير، ص 13.

[21] وهؤلاء الفلاسفة هم: روبرت بول فولف، وبارنجتون مور، وهربرت ماركوزا، انظر المقدمة (العلمانية الجافة) التي قدمها: مراد وهبة على ترجمة رسالة جون لوك في التسامح: ص 9.

[22] الخليل، سمير: التسامح في اللغة العربية، الفصل الأول ضمن كتاب: التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، ترجمة: إبراهيم العريس (بيروت: دار الساقي، ط1، 1992م) ص 16.

[23] لوك، جون: رسالة في التسامح، ص 34.



وهذا التقرير الصارم من فيلسوف ولاهوتي كبير كجون لوك شكّل مع دعوات شبيهة في أوروبا البنية العلمانية للحكومات الديمقراطية القائمة على فصل الدين عن الدولة، وهي الدعوة التي انتصر لها الأزهري المعروف مصطفى عبد الرازق في كتابه الذي قوبل باستنكار شديد حينها وعاقبه الأزهر بسحب شهادته منه ولم يرجع له اعتباره إلا بعد تسنم أخيه مشيخة الأزهر، إلا أن هذه الدعوات اليوم تلقى صدى واستحساناً بين كثير من المثقفين المسلمين خاصة الذين عرفوا قيمة القانون في المجتمعات الغربية واستثمروها استثماراً حسناً في الدعوة ونشر الدين، وهذا التقرير يخفي في طياته فرضية أن التسامح الاجتماعي لا يتحقق إلا بتحقق التسامح الديني وفي ظل حكومة تفصل الدين عن السياسة والتعليم!

يشكل الوازع الفردي لبنة كبيرة في صرح النظام الأخلاقي الإسلامي، ولم تقتصر حدوده على العبادات من صلاة وصوم بل تعتدها إلى المعاملات والالتزامات المالية المترتبة في ذمة المسلم، وعلى الرغم من أهمية هذا الوازع في ضبط كثير من الالتزامات الأخلاقية وتوعية الضمير المسلم بمسؤولياته وحدود حرياته الشخصية إلا أنه في الوقت نفسه أعاق بشكل غير مباشر تفعيل كثير من المفاهيم الأخلاقية في المجتمع التي تستدعي عملاً مؤسسياً منضبطاً ووتيرة من العمل لا تعرف الجمود والتردد اللذان يكبلان الوازع الفردي، وقد يبدو هذا للوهلة الأولى ضرباً من التناقض بين أهمية هذا الوازع وبين ما يخفيه تحت أجنحته الواسعة من ظلال سلبية إلا أن بسط المسألة بطريقة علمية يسهم في رفع هذه الغشاوة.

وقد أحال الأصوليون كثيراً من الواجبات والمسؤوليات المادية والمعنوية إلى الضمير اليقظ للفرد أو ما أسموه بالوازع الفردي، فالمؤمن يزعه إيمانه عن اقتراف الذنوب والوقوع في الخطايا، كما أن هذا الوازع يدفعه إلى الالتزام بالصلاة والصوم ودفع الزكاة كذلك، ويشكل هذا الوازع ذراعاً للعدالة من خلال عمليات الشهادة والاستجواب في القضاء والمحاكم. وبالمقابل يشكل السلطان وازعاً قانونياً يعطي للأدلة والبينات أهمية أعلى من القسم الذي يؤديه صاحب الشهادة تحت تأثيرات الوازع الفردي على سبيل المثال، وفي التراث الإسلامي مقولة نسبت إلى الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه حين صعد المنبر فأرتج عليه فقالها وذهبت مثلاً: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. والعقلاء يشككون مجتمعين في مقدرة الوازع الفردي على تحقيق العدل وتثبيت أركان الدولة، فالمؤمنون



حسب نصوص القرآن قليلون في عددهم: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103] والذين يزعهم إيمانهم يشكلون قلة من هذا القليل.

والسؤال الذي يقودنا إلى منعطف حاسم في التسامح الاجتماعي هو: أتحقق سلطةُ القانون وسيادةُ الدستور التسامحَ الاجتماعي بصورة عفوية بوصفها نتيجة لا بدّ منها في ظلّ الأنظمة الديمقراطية أم أن تحقيق ذلك مرهون بعمل نشيط لمؤسسات وتجمعات أخرى ليس لها طبيعة سلطوية وقانونية؟ وتكمن الإجابة في المراهنة على الوازع الفردي أو العمل المؤسسي المنهج...

**التسامح الاجتماعي وسلطة الدولة ووازع التقوى**

يقرن كثير من المفكرين بين تحقيق التسامح الاجتماعي وسيادة القانون والديمقراطية على النمط الغربي حيث لا تفاوت في الحصول على فرص العمل ولا تمايز في الوقوف أمام سلطة القانون، وإذا لم يتحقق هذا الأمر تتبدد في نظرهم وبطريقة أوتوماتيكية كل الدعوات والنظريات الأخرى مهما علا شأنها وأهميتها، وهذا النمط من التفكير يدل على عجز قدر دلالاته على محاولة الربط بين مؤسسات الدولة المتعددة وتوزيع المهام بينها. وهؤلاء محقون في أن القانون يشكل صمام أمان في وجه كل الدعوات العنصرية التي قد تفتت النسيج الاجتماعي وتلهب الكراهية ونبرات التعالي بين الأعراق المختلفة، إلا أنه لا يشكل وحده الآلية التي من خلالها يتحقق التسامح الاجتماعي، فالقانون يتيح فسحة واسعة من الحرية والتحرك لتحقيق هذا التسامح إلا أنه سعيه إلى ذلك مقيد بسلسلة من الإجراءات الإدارية ذات المهام المتعددة، فالمؤسسات الخدمية والقضاء ودوائر الشرطة كلها تحقق شيئاً من جزئيات التسامح على اختلاف أنواعه، ولكن لا يمكن التوجه إليها منفصلة بحال للعمل على تحقيق التسامح وتمكين حقيقة التسامح الاجتماعي في الواقع المعاش.

والقرآن الكريم يفصل بجلاء مفاهيم العدل والمساواة ويقرنها بسلطة الدولة والقضاء النزيه أي التسامح السياسي، كما يقر حق الاعتقاد وبالتالي التسامح الديني، أما آليات ترسيخ التسامح الاجتماعي بين الشرائح الاجتماعية المختلفة فهي مبثوثة في نصوصه ويخلط كثير من المفكرين بينها وبين آيات التسامحين الديني والسياسي أما الخطباء



ومن كان على شاكلتهم فلا يميزون عادة بينها. ويختلط الأمر كذلك على كثير ممن يعيشون في ظل أجواء ديمقراطية ويتمتعون بحقوقهم فيظنون أن حالة المهادنة بين الأعراق والأديان المتعددة هي بعينها التسامح الاجتماعي وهذا وَهْمٌ! فكثير من المجتمعات الديمقراطية متعددة الأعراق والأديان ترسم بحزم خطوط التماس بين التجمعات الثقافية المختلفة فتشهد حالة من السكون والرضا والتعايش السلمي في الظاهر، فكل مواطن مشغول بعمله لا يكاد يجد وقتاً لينظر في أوضاع أقاربه وجيرانه والحياة تجري على وتيرة واحدة، ولكن ما إن يختل النظام السياسي لسبب من الأسباب إلا وتظهر المشاحنات والمباغضات والسلوكيات العنصرية والشوفينية على السطح دفعة واحدة مما يؤكد أن التسامح الاجتماعي لم يتحقق إلا على نطاق ضيق.

وقد دعا القرآن الكريم في إحدى الآيات التي تشكّل أيقونة مفاتيح التسامح الاجتماعي إلى التعارف فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: 13]، وهذه الدعوة مبنية على أساس أن تنوع اللغات والثقافات التي تؤدي غالباً إلى صراعات حول الهوية هي آية من آيات الله في الكون لا بدّ أن تؤدي دوراً في التناغم والتعايش السلمي لا أن تجر إلى خلافات وصدام محتقن؛ فالتعارف لا يعني إلغاء تلك القيم التي تسبب المنازعات وإنما يدعو إلى التفكير في إنشاء مؤسسات اجتماعية تصنع قيماً موازية ومكملة تمنع التصادم وتحقق الهدف الإلهي من التنوع العرقي.

ومن الملفت للنظر أن آية التسامح الاجتماعي الكبرى في سورة الحجرات نزلت في سياق حدث اجتماعي يتضمن مجموعة من القيم الأخلاقية، إذ جاء مجموعة من الأعراب من البادية إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وقد ركبتهم الظنون قائلين لأنفسهم: "إن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نعش في جناحه"[24]، فلم يحزموا أمرهم في التعامل مع الدين الجديد وإنما جاؤوا بدافع المصلحة ولم يحسنوا التواصل مع النبي صلى الله عليه وسلم سواء أكان نبياً في ظنهم أم ملكاً! فأظهروا جلافة كبيرة في نداء النبي صلى الله عليه وسلم وحثه على مقابلتهم والاستماع إليهم، فتضمنت هذه السورة العديد من الفضائل والقيم الأخلاقية التي تسهم في بناء التسامح

[24] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م) ج22، ص 284.



الاجتماعي ابتداء بأدب الحديث مع حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومروراً بطريقة التعامل مع الأخبار المضللة بحكمة وصبر، وتحكيم الصبر والتقوى في فض الخصومات بين الفرق الإسلامية المختلفة، وانتهاء بالنهي عن الظن الفاسد والتجسس والغيبة، ثم الدعوة إلى إنعام النظر في الحكمة الإلهية من تنوع الألسن والثقافات وتعدد الأعراق، ونصب مقياس التقوى للتفاضل بدل مقياس النسب والحسب والمناصب والمال، وهو مقياس يقدر الجميع على دركه والتسابق فيه.

وفي قضية التسامح الاجتماعي يشبه الاحتكامُ إلى سلطة الدولة الاحتكامَ إلى وازع التقوى الفردي، وهو وازع مرن يتفاوت فيه الناس، وحتى الفرد التقي يتقلب فيه في صعود ونزول، وإذا كان شأنه هكذا فمن الخطورة بمكان تحكيمه في قضية التسامح الاجتماعي، ويعادله في الخطورة نصب الأتقياء والصالحين نماذج لهذا التسامح،

فوجود القدوة شيء وطريقة الاقتداء به شيء آخر يتحقق بوسائل مختلفة، ولا يعني هذا الكلام إلغاء الأسوة الحسنة فالقرآن الكريم شنَّ حملة كبيرة على المنافقين لأنهم بأعمالهم كانوا يدمرون الأسوة الحسنة ويقطعون الصلة بين الإيمان والعمل، بين الظاهر والباطن، والتسامح موطنه العمل والمعاملة لا المعتقد، بشرط أن يحتفظ هذا المعتقد بقوامه لا أن يخضع لتقلبات جوهرية لتحقيق مصالحة فهذا الأمر يقود إلى مفسدة أوسع على الأمد البعيد، فالتسامح في المعتقد "ليس تسامحاً إنما هو تميع، والإسلام عقيدة التسامح، ولكنه ليس عقيدة التميع، إنه تصور جاد ونظام جاد، والجد لا ينافي التسامح، ولكنه ينافي التميع"[25]؛ كما أن التسامح في الوقت ذاته لا يعني الفلتان الأمني وتغليب الباطل على الحق فليس: "من الفضيلة في شيء أن تغل يد الفضائل عن حرمات خصمها في الوقت الذي استباح المبطل كل الحرمات؛ وإن ذلك ليس له معنى إلا نصر الرذيلة على الفضيلة، وخضد شوكة الحق ليأكله الباطل؛ وإن التسامح في هذه الحال هو شر ذرائع الرذائل، والقوة والقصاص في هذه الحال هو حماية الفضيلة وفل شوكة الرذيلة. وهكذا فضائل الإسلام دائما فضائل لها شوكة وقوة، ولا تعد التسامح الذي يمكن

---

[25] قطب، سيد: في ظلال القرآن (بيروت: مؤسسة الرسالة) ج2، ص 211. وحتى نكون منصفين في حق مفكر كبير كسيد قطب ينتهج نهجاً انقلابياً في تأسيس الدولة الإسلامية واقترن فكره بنشأة وتطور جماعات دينية متطرفة نرى أنه لا مندوحة من الاعتراف بوجود تضارب في أفكاره عن التسامح وإقامة الدولة الإسلامية، وهو تضارب ناشئ عن اقتران تفريعه النظري للتسامح بانخراطه العملي في تنظيم الإخوان المسلمين وما صاحب ذلك من اعتقال وتعذيب وإعدام في نهاية المطاف، وأسهمت التطورات السياسية في مصر والانقلاب الفكري والنفسي لقطب نفسه في ظهور هذا التضارب الذي بدونه لا يمكن تفسير تحليله الهادئ والمستنير لقضية التسامح.



للباطل من أن يتغلب على الحق إلا الاستسلام والذلة"[26]. والتسامح يكون في: "المعاملات الشخصية لا في التصور الاعتقادي، ولا في النظام الاجتماعي".[27]

فلغة الخطابة المستخدمة على المنابر لا تجدي كثيراً في ظل مخالفة العمل للقول، ودعوة بعض الخطباء الناس إلى اتباع الأقوال دون الأعمال تزيد من خطورة الموقف ولا تبرأ ذمتهم أمام الله، بل وتشرع الأبواب أمام موجة من موجات الفكر الإرجائي بكل ما يحمله من سلبيات وعوامل هدم، فعامة الناس يهمهم وجود قدوة أمامهم أكثر من اهتمامهم بالعلوم النظرية، ووجود مثال حسن واحد خير من ألف كتاب، هكذا كانت سنة الكون وهكذا تبقى إلى قيام الساعة، ولن يغير من هذا الوضع رأي يوجب على الفرد إعمال عقله في كل كبيرة وصغيرة إلى أن يهتدي إلى جادة الصواب ويميز الفضيلة من الرذيلة فهذا أمر لا يطيقه إلا أقل القليل من الناس والأغلبية تتقصف أعمارهم في الجري وراء الرزق وتحمل المسؤوليات؛ ولو كان رأي المعتزلة في الحسن والقبح العقليين صحيحاً لما أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين واكتفى بنصب العقل حكماً ورادعاً! وهكذا لغة الدعوة إلى التسامح الاجتماعي لا بد أن تكون مضاءة دائماً بنماذج حية ومتطورة.

والوازع الفردي معرض للانتكاس وتهيمن عليه الوساوس وتقلبات المزاج في حالات كثيرة، كما أن الرجال الصالحين ـ كأفراد خارج إطار مؤسسات منظمة ـ أضعف تأثيراً من الوازع الفردي! فلا بدّ من وجود تنظيمات صغيرة ونشطة تأخذ على عاتقها تحقيق مقومات التسامح الاجتماعي، سواء أكانت هذه التنظيمات مدارس خاصة تتميز ببرنامج منفتح على الثقافات والأعراق فضلاً عن تميزها في الجانب التعليمي، أو كانت مؤسسات خيرية لا تعرف التفرقة العنصرية تدعم ذوي الدخل المحدود أو تهب المنح الدراسية للطلبة، أو كانت مؤسسات فنية تسهم من خلال نشاطاتها الثقافية والترفيهية في نشر ثقافة الأقليات.

ومن ضمن عمل المؤسسات الشعبية لتحقيق التسامح الاجتماعي يدخل سهم المؤلفة قلوبهم بسلاسة وانتظام، فسهم المؤلفة قلوبهم ثبت بنص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا

[26] أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى: زهرة التفاسير (بيروت: دار الفكر العربي) ج2، ص 590.
[27] قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج2، ص 391.



وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]، وذكر الإمام الطبري أقوالاً كثيرة في معنى المؤلفة قلوبهم وانتهى إلى أن الله: "جعل الصدقة في معنيين أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمين، والآخر: معونة الإسلام وتقويته... وكذلك المؤلفة قلوبهم، يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء، استصلاحًا بإعطائهموه أمرَ الإسلام وطلبَ تقويته وتأييده. وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من أعطى من المؤلفة قلوبهم، بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام وعز أهله. فلا حجة لمحتجّ بأن يقول: "لا يتألف اليوم على الإسلام أحد، لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم""[28]، فإلغاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهذا السهم لا يشكل معضلة أمام الإمام الطبري وغيره ممن يميلون إلى بقاء السهم على أصله وترك العمل به للنوازل، واليوم انتهت الدولة وانتهى معها سهم المؤلفة قلوبهم إلا أن التجمعات الشعبية المنظمة أحيته من خلال بسط رعايتها لكل جديد اهتدى إلى طريق الحق، وبالفعل هناك مؤسسات غير حكومية في الدول متعددة الأديان والأعراق تهتم بشأن المهتدين الجدد، وتؤدي هذه المؤسسات دوراً عظيماً في ترسيخ قيم التسامح الاجتماعي بين أبناء الأعراق المتعددة ممن اهتدوا، وبهذه الصورة العملية تبقى الآية الكريمة مؤشراً عملياً على التسامح الاجتماعي يأخذ صوراً متعددة باختلاف الزمان والمكان.

فمن الضروري تشجيع الأقليات على إظهار ثقافتها الخاصة والاعتزاز بها لا وأدها وتغليب ثقافة الأكثرية، وهذا التشجيع يقضي بمرور الزمان على حالات الاحتقان والكراهية ويجعل التعرف على الآخر وظيفة اجتماعية روتينية؛ أما دعاوى تغليب ثقافة الأقليات لتحقيق الوحدة ونزع فتيل النعرات القومية فهي دعوات براغماتية فشلت في تحقيق طموحاتها وزرعت الضغائن بين الأقليات وألهبت شعور المظلومية المهيمن عليهم في الأصل، وهذه الطريقة البراغماتية في التفكير وجدت منذ القدم، فمصلحة روما فوق كل الاعتبارات بالنسبة إلى الإمبراطور الفيلسوف ماركس أوريليوس فلا بأس من إبادة بعض القبائل الجرمانية المعاندة، ومصلحة بني أمية فوق كل الاعتبارات فلا بأس من قطع بعض الرؤوس المشاغبة وإن كانت لبعض التابعين الكبار!، ومصلحة الماركسية اللينينية فوق كل المصالح فلا بأس من إبادة بعض القوميات المتمردة؛ والغريب أن أحزاباً إسلامية تبنت هذا المنطلق الفكري ذي

---

[28] الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج14، ص 316.



البريق الخلاب، فإحياء خصائص الأقليات وفق تنظيرهم يشتت قوة وتماسك الدولة، ويعيق تحقيق الخلافة الإسلامية الكبرى، وعلى كل الأعراق والأقليات أن تذعن لحقيقة أولويات الحكم الإسلامي، وإلا فهي عميلة للصهيونية العالمية، وتمد يد المعونة والمخدومية إلى أعداء الإسلام شرقاً وغرباً! وهذا المنطق البراغماتي يعني عملياً تهميش التسامح السياسي والاجتماعي، إذ إن فكرة التسامح لا تكتسب وجوداً إلا من خلال سلطة سياسية[29] لأن "الأمور الضرورية لتدعيم وجودنا ليست من الإنتاج العفوي للطبيعة".[30]

ومن الطريف أنَّ ممارسات التسامح الاجتماعي الداعية إلى إظهار ثقافة الأقليات، بل والاعتزاز بها دونما تطرف كانت معروفة في التاريخ الإسلامي في ظل سيادة الدولة العباسية، فكان بلاط الخليفة مسرحاً خصباً لتجليات التنوع الثقافي وتكاملها، قال خلف بن المثنى: لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يُعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني)، والحميري الشاعر (وهو شيعي)، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي)، وسفيان بن مجامع (وهو خارجي صفري)، وبشّار بن بُرد (وهو شعوبي خليع ماجن)، وحمّاد عجرد (وهو زنديق شعوبي)، وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي)، وابن نظير المتكلم (وهو نصراني)، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي)، وابن سنان الحرّاني الشاعر (وهو صابئي)، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في ديانتهم ومذاهبهم![31]

وكون التسامح كممارسة لا زال هشاً حقيقة تستدعي من كل جيل تأسيس أرضية جديدة للتسامح يقف عليها بالتساوي مع باقي الأعراق، وسبب الانطلاق من نقطة الصفر كل مرة مرده إلى تغير المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ولدور التغيرات العالمية في ضخ عادات وقيم جديدة إلى الموروث الثقافي فالتسامح "مجرد فرضية ضمنية تتحدث عن طبيعة الحياة العامة والعلاقات البشرية"[32]، وقد أثبتت التجربة أن حزباً سياسياً لا يؤمن بالديمقراطية هو حزب عاجز تماماً عن حل مشكلة الحقوق القومية للأقليات[33]، ووجود فجوة بين التنظير

---

[29] نيكلسون، بيتر. ب: التسامح كمثال أخلاقي، الفصل الثاني ضمن كتاب: التسامح بين شرق وغرب، ص 31.

[30] لوك، جون: رسالة في التسامح، ص 52.

[31] السباعي، مصطفى: من روائع حضارتنا، ص 143.

[32] الخليل، سمير: التسامح في اللغة العربية، ص 23.

[33] زكي، نبيل: الأكراد، الأساطير والثورات والحروب (مصر: مطبوعات الكتاب اليوم، العدد 8، 1411هـ/1991م) ص 6.



وبين السياسات العملية التي تنفذها مؤسسات الدولة متعلقة بطبيعة العلاقة بين القانون والقوة، فنهاية أحدهما بداية الآخر على حد قول جون لوك[34]. ويبقى التسامح مسألة خيار أخلاقي لا أهمية معها لأذواقنا ونزعاتنا، وفي هذا الخيار الأخلاقي لا بدَّ أن نستثني النفور.[35]

وتحقيق التسامح الاجتماعي مرهون بنظام ديمقراطي يكفل الحريات والمساواة، ولا بد من دعم بعض الخطوات الحضارية لتحقيق الإخاء والتسامح، والأهم من هذا وذاك الإسهام في تأسيس ودعم جمعيات ومنظمات اجتماعية

وثقافية وفنية واقتصادية نشطة تبث روح التسامح وتلغي الفوارق بفعالياتها وعملها الصافي من العصبية والجهل بأبنية ثقافة الأقليات، وإلغاء لغة (الإسكات) المتبعة في أدبيات التواصل والتآخي.

[34] لوك، جون: رسالة في التسامح، ص 55.

[35] نيكلسون، بيتر: التسامح كمثال أخلاقي، الفصل الثاني ضمن كتاب: التسامح بين شرق وغرب، ص 31.



## قائمة المصادر والمراجع


ابن حنبل، الإمام أحمد: المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1420هـ/1999م).

أبو خليل، شوقي: التسامح في الإسلام، المبدأ والتطبيق (بيروت: دار الفكر المعاصر، ط1، 1414هـ/1993م).

أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى: زهرة التفاسير (بيروت: دار الفكر العربي).

البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا (بيروت: دار ابن كثير، اليمامة، د. ط، 1407هـ/1987م).

الخليل، سمير: التسامح في اللغة العربية، الفصل الأول ضمن كتاب: التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، ترجمة: إبراهيم العريس (بيروت: دار الساقي، ط1، 1992م).

زكي، نبيل: الأكراد، الأساطير والثورات والحروب (مصر: مطبوعات الكتاب اليوم، العدد 8، 1411هـ/1991م).

الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط1، 1417هـ/1997م).

السباعي، مصطفى: من روائع حضارتنا (بيروت: دار الوراق للنشر والتوزيع، ط1، 1420هـ/1999م).

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م).

الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000م).

عبد الوهاب، أشرف: التسامح الاجتماعي بين التراث والتغير، تقديم حسن حنفي ومحمد الجوهري (مصر: دار كتب عربية، سلسلة كتب التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الثاني عشر، د. ط، ت).

الغزالي، محمد: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (القاهرة: دار نهضة مصر، ط6، 2005م).




الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط6، 1419هـ/1998م).

قطب، سيد: في ظلال القرآن (بيروت: مؤسسة الرسالة).

لوك، جون (1632-1704م): رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبو سنة، مراجعة وتقديم: مراد وهبة (مصر: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 1997م).

